14

القدس المدينة القديمة

تغمرني بهجة كبيرة لأول مرة منذ وصولنا. أنا هنا داخل هذه الفورد، ملتصقة بأهلي ذاهبة في نفس اتجاههم. تتوقف الحافلة باستمرار، نازلون وصاعدون، يعرفون وجهتهم، هذا مكانهم، أرضهم. أحسدهم! ليسوا مصابين بالتيه والدوار مثلي، لا يواجهون المجهول كما لا يدّعون معرفتهم وإدراكهم لكل شيء. كل هاجسي وأنا بينهم ألا أبدو كأجنبية، رغبتي أن يقتنعوا بوجودي هنا منذ فجر التاريخ، بأنني واحدة منهم لم أبتعد يومًا عن مسيرهم وتقاسمت باستمرار أفراحهم وأتراحهم، بأني أحبهم الآن كما أحببتهم على الدوام، وبأني وأجدادي ما تركنا هذه الأمكنة الغالية علينا.

نعبر المدينة التي تتبدى لي للمرة الأولى. في الفورد كان الركاب بسبب وبدون سبب يمزحون بكل ألفة. اتخذُ هيئة من تشاركهم وتتفاعل مع كلماتهم، أجتهد كي أبدو جزءا من الصورة... نصل المدينة القديمة، ينزل الجميع. إنها نهاية الخط.

المدينة القديمة المحزّمة بسورها تنفتح أمامي وتهبُ نفسها لخطواتي ونظراتي. الجنود هنا هم أيضًا، أمام كل الأبواب مسلحين حتى العظام. يستعرضون قوتهم وسلطتهم بعدوانية على مزارعين بسطاء يبيعون خضرواتهم على زاوية الطرقات وبائعين فرشوا بضائعهم من تذكارات وخبز وحلوى.

أتقدم وأنا أشدّ على ساقيّ. أتقدم، أتقدم، كأني اتجه نحو مكان مألوف تاركة دواري خلفي. شيئًا فشيئًا أسترخي، أذرع المكان بخطاي، لا أدع رقعة، هذه الأزقة المتعرجة تذكرني بكل مدينة أخرى عبرتها: الرباط، مراكش، تونس أو الجزائر. لكن اللغة مختلفة هنا، إنها لغة طفولتي لكن بلهجة أهل القدس. أصغي لها وأتشبع بها، لتغمرني بعذوبتها، لتروي كل افتقادي. أبصر كبارًا في السن يجلسون حول متاجرهم الصغيرة يلعبون طاولة الزهر ومن وقت لآخر يقهقهون ويصيحون: "لا ياشيخ! مش هيك، والله مش هيك!"

يملأني حبور وتغمرني سعادة.

هنا، ككل مدينة قديمة، نُظّمت القدس وفق حِرَف أصحابها، وتوزع

الحرفيـون حسب المواد التي يستخدمونها: الجلد، الخشب، النحاس، الساعات... عطارون وبائعو بهارات. تفصل بينهم حدود وهمية. نتوه في الأزقة ونجد طريقنا في النهاية.

أصل أخيرًا إلى قلب المدينة العتيقة. لا أجرؤ على الاقتراب من ساحة المسجد الاقصى، ليس الآن، ليس هذه المرة. أؤجل الزيارة للغد وأعود لعند ساري.